الأمازيغ والفئات المقموعة

الدكتور عبدالستار قاسم

2001/6/4

يصعب جدا على مدرس في الفكر السياسي أن يستعمل كلمة أقلية ليشير إلى أناس مواطنين لا ينفصلون عن العرب ولا هم خارج الإطار العام للأمة. كلمة أقلية نابية إلى حد ما ووقعها في الأذن غير طيب، وتعطي الانطباع بأننا نتحدث عن جسم غريب أو غرباء يفرضون أنفسهم على أصحاب الدار. على الرغم من عربية الكلمة وما يمكن أن تحمله من حيادية إلا أنها تحمل في طياتها نوعا من الانزعاج الأخلاقي. إنني أجد نفسي أحيانا مكرها على استخدامها تساوقا مع الجو العام على الرغم من قناعتي بضرورة السعي نحو استحداث التعبيرات المتناسبة مع الحالة. لا أرى أن كلمة أقلية تناسب أناسا تضرب جذورهم في الأرض بعمق التاريخ. ربما يكون من المناسب إطلاق كلمة أقلية على فئات سياسية لأنها ذات نمط متموج غير ثابت ولا تعني أناسا معينين بشخوصهم وإنما أصحاب مواقف معرضة للتغيير، لكنه ليس من المناسب استعمالها لتصف فئات ثقافية أو قومية. كلمة أقلية ذات بعد فلسفي عددي بينما الفئة الثقافية أو القومية أو الدينية ذات بعد كيفي، ولا يجوز استعمال كلمات البعد العددي لوصف حالات كيفية.

لم يستعمل القرآن الكريم كلمة أقلية واستعمل كلمات أخرى لتشير كل منها إلى معنى محدد مثل فئة وطائفة وفريق. لم يقل القرآن أقلية وإنما قال فئة قليلة وأتبعها بكلمات طيبة خاصة بقدرتها على تحقيق النصر أمام كثرة. قد تكون البركة والقدرة في الفئة القليلة وقد تكون الخيبة من نصيب الفئة الكثيرة. وقد تكون هناك كثرة لا نفير لها، وقد تكون قلة قليلة ذات نفير فتحقق الإنجازات الكبيرة. هكذا مثلا كان وضع المسلمين في معركة بدر. وفي تجربتنا المعاصرة هكذا كان وضع اليهود الصهاينة في معركة حزيران (يونيو)/67.

من الوارد أن الأمازيغ يعتبرون أنفسهم منتقصي الحقوق من قبل العرب وأنهم لا يجدون الفرص الكافية لتجسيد تطلعاتهم وثقافتهم بالطريقة التي يرونها مناسبة. بعضهم يجادل بأن العرب يضطهدون الفئات القليلة العدد ولا يعترفون بحقوقهم ويمنعونهم من ممارسة تلك النشاطات التي تعمق الانتماء التاريخي والثقافي لدى الأبناء. وبعضهم يقيس حالهم على حال فئات أخرى في الوطن العربي سواء كانت دينية أو قومية.

أما بعض العرب بخاصة في الغرب العربي فيجادلون بأن الأمازيغ ليسوا قوما آخرين ولا هم أصحاب ثقافة مختلفة عن الثقافة العربية. يرى هؤلاء أن الأمازيغ عبارة عن عرب ويتحدثون عن جذور تاريخية لهذا الأصل، وأن ثقافتهم عبارة عن ثقافة عربية لا يختلف تميزها عن تميز ثقافات محلية في العديد من المواقع العربية. وهذا جدل ينطبق على اللغة الأمازيغية التي يقولون أنها عربية الأصول وتعرضت لتأثيرات مختلفة باعدت بينها وبين العربية.

ليس المهم ما أرى في الآخرين وإنما ما يرى الآخرون في أنفسهم. لا أستطيع أن أضع الكلمات في أفواه الناس وليس بإمكاني التحدث بالنيابة عنهم أو إعطاءهم الأوصاف التي أراها مناسبة وأقول أنهم يتبنوها. الأمازيغ هم أمازيغ إذا قرروا ذلك، وهم ليسوا كذلك إن قرروا شيئا آخر. وكل قدراتي الفلسفية والمنطقية والإداعائية لن تسعفني ولن تغير من الواقع شيئا إن هم رأوا في أنفسهم شيئا لا أريد أن أراه.

للعرب أن يتذكروا أنهم وقفوا مع السود في أمريكا وجنوب أفريقيا ضد انتقاص البيض لحقوقهم، ومع المسلمين في الفلبين وكشمير والبوسنة وكوسوفا. حتى أننا نقف مع الهنود الحمر ونكن لهم التعاطف ومع الأقزام في القطب الشمالي. لا يقف العرب بالضرورة مع مطالب انفصالية ولكن مع حقوق ضعفاء ينتهكها أقوياء على اعتبار أن القوة من الناحية الإنسانية يجب ألا تنتهك حقوقا وإنما تحمي الحقوق. أليس من الأولى لشعب يقف هذه المواقف مع فئات مضطهدة أن ينصف فئات تعيش معه وبين ظهرانيه؟ لماذا يصر عرب على ذوبان الفئات القومية والدينية المختلفة في الثقافة العربية أو الإسلامية؟ لا أرى مصلحة للعرب في ذلك ولم أسمع أن الإسلام يسمح بذلك. نحن نخالف ما ندعو إليه من قيم إنسانية ونخالف أسس العقيدة الإسلامية ونحاول إجبار الآخرين على تبني ما نكره أن يجبرنا آخرون عليه.

المشكلة هذه ليست في الجزائر فقط وإنما تشمل إقطاعيات عربية أخرى، وهي ليست حكرا على الحكومات وإنما تجد لها صدى شعبيا يؤيدها. لقد استهلكنا جزءا كبيرا من أموالنا وجهودنا وقدمنا أبناءنا وأبناء الفئات الأخرى على مذبح الاقتتال الذي أضر وما زال يضر بالجميع. حروب داخلية طويلة ما زالت مستعرة حتى الآن لأن هذه الفئة تريد تدريس لغتها الخاصة في المدارس أو لأنها ترى أن تقربها إلى الله يمكن أن يتم بطريقة مختلفة عن طريقة المسلمين. نعيش نحن والأكراد والأمازيغ والجنوبيون وربما في مرحلة أخرى وفئات عدة

أخرى حياة توتر وسفك دماء تولد البغضاء والكراهية وتسطر صفحات تاريخية سوداء تلعننا بسببها الأجيال القادمة. لا أدري ما العار أن تدرس فئة لغتها في المدارس أو أن تطلب استعمال لغتها إلى جانب العربية في المعاملات الرسمية الخاصة بها؟ ألا تعلمنا تجاربنا وتجارب الأمم الأخرى؟

إنه من الحكمة وربما في الأصل أن ينفتح الباب أمام كل الفئات لرؤية ذاتها وتطوير ثقافتها وفنونها الخاصة لما في التنوع من فوائد تعم الجميع. وفي الانفتاح ما يقرب الناس من بعضهم البعض ويؤلف بين القلوب ويعزز التفاهم والتعاون ومشاعر المصير المشترك. في الانفتاح فوائد وفي الانغلاق أضرار خطيرة نراها بأم أعيننا. ثم ما الحكمة من الانغلاق والإصرار على أن الذي يعتبر نفسه متميزا عني أنه ليس كذلك؟ ما الحكمة أن أعتبر نفسي حضنا للجميع وأعاقب كل من يحاول الخروج عني خاصة إذا لم أكن ذلك الحاضن العظيم؟

يجادل بعض العرب أن الفئات التي نتحدث عنها تتعاون مع الأعداء بخاصة الولايات المتحدة وإسرائيل. هذا صحيح، وهو مرفوض ويجب ألا نتجاوزه أو نصفح عن القائمين عليه. تعاون أكراد وجنوبيون وموارنة مع صهاينة وأمريكيين، وهناك شكوك حول أمازيغ يتعاونون مع فرنساويين. هذه أعمال لا تغتفر، لكن من المفروض ألا يغيب عن أذهاننا أن عربا مسلمين يعملون عملاء لأعداء ومنهم رؤساء دول. زعماء عرب ومسؤولون يتعاونون مع الصهاينة ويدعمون التآمر على الأمة العربية وليس فقط على أنظمة منافسة لهم. وعلى الصعيد الشعبي، هناك عدد كبير من الجواسيس لإسرائيل وأمريكا وغيرهما من الدول من الناس العاديين، وعدد غير قليل من جيش جنوب لبنان المنهار كان من المسلمين. وهنا فقط أقدم أمثلة ولا أريد الغوص، ومسألة العمالة للأعداء والخيانة بحاجة إلى فصول وروايات.

على الرغم من أن بعضهم يقدم نفسه أداة لأعداء الأمة إلا أنه من الضروري أن تسأل الفئة الكبيرة نفسها عما عملته حتى تندفع فئة قليلة أو بعض أفرادها نحو الأعداء وأن تعمل هي نفسها على تنظيف صفوفها من العملاء. وهنا أضرب دروز فلسطين مثلا والذين يتم تجنيد بعضهم في الجيش الصهيوني. عانى هؤلاء نوعا من الاضطهاد عبر سنين ولاقوا معاملة غير مريحة من الفئة الكبيرة، وكانت النتيجة أن أصبح من السهل على العدو أن يستدرجهم. هذا لا يعني أن الخدمة في جيش العدو مبرّرة وإنما فقط أقدم رسالة للفئة الكبيرة التي أنا منها كي تفكر في سياساتها التي قد تضعفنا وتمكن الأعداء منا.

لا توجد نوايا انفصالية معلنة لدى الفئات القليلة على الرغم من إمكانية وجود مجموعات أو أفراد يرون أن مشاكلهم يمكن حلها بالانفصال وإقامة الدولة المستقلة. بمعنى أن هذه الفئات لا تسعى ولو على الأقل من الناحية العلنية إلى تمزيق الوطن العربي، وتكتفي بمطالب تقترب من مفاهيم الإدارة الذاتية. لكن المشكلة تصبح خطيرة إذا استمر التغاضي عن الحقوق مما سيدفع بالتأكيد نحو المطالبة بكيانات مستقلة وبدعم من الأعداء. أي أننا نسعى من خلال ترددنا في حل سريع للمشاكل إلى أن يتفاقم الوضع أكثر مما هو عليه. هذا ناهيك عن أن الذين يمزقون الوطن العربي ولا يسعون نحو الوحدة هم عرب مسلمون سنيون.

هل الأخوة عربية أم إسلامية؟ الإجابة سهلة. نستطيع أن نعامل غير المسلم بأخوة الدم، ونستطيع أن نعامل غير العربي بأخوة الدين، ولكل واحد ما للآخرين وعليه ما عليهم.

هكذا نتخلص بسهولة من سيادة طرف على آخر بهدف إلغائه. لكنني لا أحسب أن المسألة متعلقة بالعقل والعقلانية والمنطق والحسابات العلمية. المسألة متعلقة بالتفكير العصبي المنغلق الذي يظن أن كرامة صاحبه تُداس إذا أصبح للآخرين كيان وكلمة ومساهمة فعلية في التخطيط وصنع القرار. إنه تفكير المختار أو العمدة أو ما يمكن تسميته"أبو العرّيف" الذي يحصر الفهم والمعرفة والحكمة والعظمة في شخص واحد يعاونه زمرة منافقة تتجاوز كل القيم والمبادئ من أجل مصالحها الذاتية. هذا التفكير يلغي الآخر، وينسجم مع توجه في التفكير العربي يحرص على أن الآخر غير موجود ويجب حشد كل الطاقات في مواجهته إن برزت فرصة لظهوره. ولهذا فإن المشكلة ليست مشكلة فئات قليلة وإنما مشكلة يعاني منها الجميع. إنها مشكلة سياسية اجتماعية عميقة الجذور ويحتاج حلها إلى جهود مضنية ومكثفة.

لا يسبب الاستبداد والتفرد المعاناة للأمازيغ فقط وإنما لكل فئات الأمة. وللأمازيغ أن ينظروا كيف تم قلب الطاولة على نتائج الانتخابات في بلدهم، وكيف أن الأنظمة العربية تضطهد شعوبها على اتساعها دون تمييز، وكيف يهرب المفكرون والمثقفون والعلماء من الوطن مستنجدين بدول غربية. هناك مشكلة خطيرة جدا في الوطن العربي تفرضها الأنظمة العربية التي ترفض عمليا أن تتبنى الديمقراطية التي تقرّ اجتماعيا بالحريات وترفض الإسلام الذي يعتبر الحريات حقا خلْقيا. أي أن الجميع سواء كانوا عربا أو غير عرب، مسلمين أو غير مسلمين يواجهون في ظل هذه الأنظمة ذات المأساة. ولهذا تبقى الجهود المجتمعة من أجل التغيير السياسي في الوطن العربي أهم بكثير من أن تحاول كل فئة خلع أشواكها من جسدها بمفردها.

تعرض الأنظمة العربية الأمة للخطر من خلال ممارساتها القمعية وضيق أفقها في مختلف مجالات الحياة، ولا أرى أن الخروج من الأزمة يتم من خلال الهروب. تتدهور أحوال الأمة بالمزيد إذا قرر كل فرد أو فئة أن يبحث عن حلول ذاتية بمعزل عن الآخرين. نحن في هذا الوطن الكبير بحاجة إلى التكتل والعمل معا من أجل انتزاع حريتنا حتى لا نبقى بضاعة تتداولها الأيدي أو أدوات تدوسها الأجهزة الأمنية وأفراد المخابرات. عندما ننتزع حريتنا يصبح بالإمكان أن نتميز بالطريقة التي تخدم وحدتنا وتعاوننا معا من أجل الأفراد والفئات والأمة والأجيال القادمة. ومعا أيضا من المفروض أن نعمل من أجل التغيير الاجتماعي الهادف إلى قتل أخلاقيات التعصب والانغلاق والتي لا يعاني منها العرب والمسلمون فقط وإنما كل الفئات في هذا الوطن العربي الكبير.